عبد القادر العافية

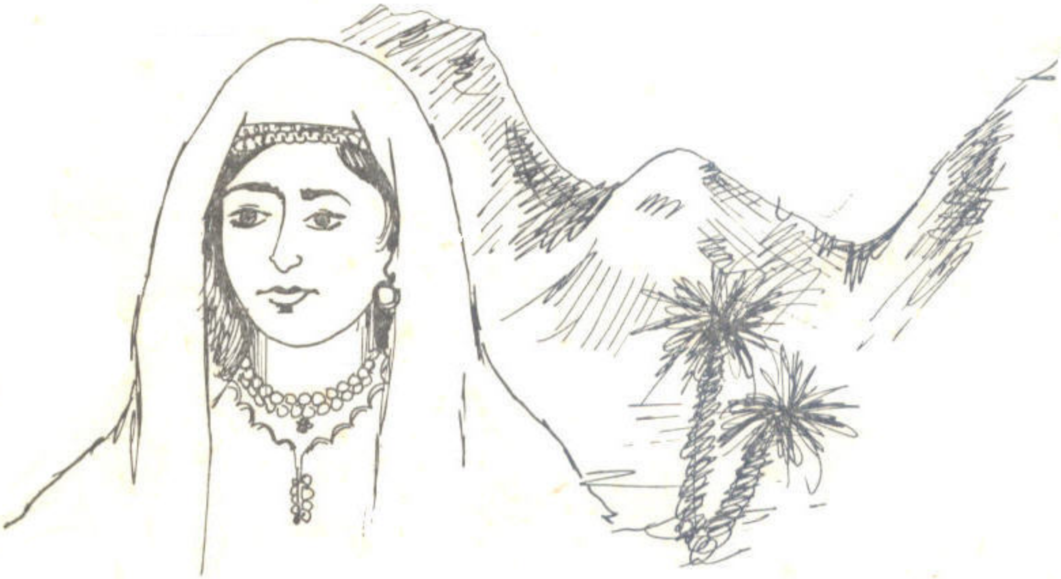

أميرة الجبل

الحرة بنت علي بن راشد

تطوان

409

www.tetouanhadit.com

عبد القادر العافية

أميرة الجبل

الحرة بنت علي بن راشد

تطـــوان
1409 _ 1989

www.tetouanhadit.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بعد سقوط أهم المدن والحصون الاندلسية على يد نصارى شبه جزيرة ايبيريا وجد المغاربة أنفسهم وجهاً لوجه أمام القوى الصليبية التي تكتلت وتوحدت ضد المسلمين بالاندلس ، وضد الذين كانوا يساندونهم ببلاد المغرب العربي ، حيث صمم البرتغاليون ثم الاسبانيون على احتلال السواحل المغربية ، وعلى بناء قواعد عسكرية بها ، قصد التحكم في هذه البلاد ، والتوغل بداخلها ، وفرض النفوذ عليها ، ونشر المسيحية بها . . .

وصادفت هذه الحملات الشرسة - في بداية القرن الخامس عشر الميلادي - ضعف الحكم المركز بالمغرب ، حيث عرف هذا الحكم ضموراً ، وانهياراً ، من العهد الثاني الدولة المرينية إذ ضعف سلاطين بني مرين ، ونشطت السعايات والمؤامرات بين الوزراء والحجاب ورجال الدولة ، وأخذ يكيد بعضهم لبعض .

وفي آخر هذه الفترة من العهد المريني وصل التدهور إلى أقصى مداه ، إلى أن تربع على كرسي الوزارة والحجابة بعض اليهود الذين فرضوا طغيانهم وجبروتهم وغطرستهم على الناس ، الشيء الذي نتج عنه تذمر واستياء عام ، وثار الناس على هذا الوضع .

وأدت هذه الانتفاضة بقيادة إمام جامع القرويين في ذلك الوقت إلى قتل الوزيرين اليهوديين ، وإلى قتل آخر سلاطين بني مرين ، وبعد صراع عنيف بين الوطاسيين - وزراء بني مرين - والشريف الجوطي استولى الوطاسيون على فاس . . . بعد سبع سنوات من الصراع الدامي .

www.tetouanhadit.com

واغتنم البرتغاليون هذا الصراع ، وهذه الحرب الاهلية فاحتلوا مدينة طنجة ، ثم أصيلا سنة : 1471 م بالاضافة إلى مدينة سبتة التي احتلوها سنة : 1415 م .

وكان لسقوط أصيلا في يد البرتغاليين أثر عميق في نفوس المغاربة ، مما جعل الناس يبحثون عن الخلاص ، ونادى العلماء بوجوب الجهاد ، ووجوب إخراج النصارى من بلاد المسلمين . . .

في هذا الظرف بالذات تأسس رباط للجهاد قرب شفشاون برئاسة الشريف ابن جمعة العلمي ، وأصبح هذا الرباط غصة في حلق البرتغاليين ، حيث عسكر المجاهدون بمدشر الخروب بقبيلة « جبل حبيب » واستطاع البرتغاليون الانتقام من ابن جمعة الشريف العلمي حيث دبروا لـه مؤامرة اغتيال على يـد بعض عملائهم ، وقام بأمر الجهـاد من بعده ابن عمه الشريف مولاي علي بن راشد العلمي ، ونقل امارة الجهاد إلى شفشاون سنة : 876 هـ .

واستطاعت هذه الحركة الجهادية أن تقف في وجـه التوسع البرتغالي إذ كان البرتغاليون يهدفون إلى التعمق داخل البلاد ، والوصول إلى فاس العاصمة السياسية و الفكرية ، ومقر دار الملك . وقد حاولوا في كثير من المرات اختراق حصار المجاهدين ، لكنهم لم يفلحوا مما جعلهم يفكرون في الوصول إلى فاس عن طريق المهديـة أو غيرها ، وحاولوا في كثيـر من المرات الوصول إلى مراكش بعد احتلالهم للصويرة وآسفي وأزمور والجديدة لكن هذه المحاولات كانت تصادف مقاومة شعبية هنا وهناك . . .

وكانت إمارة الجهاد بشفشاون بقيادة بني راشد تشكل خطراً على البرتغاليين في سبتة ، وطنجة ، وأصيلا ، وتارغة ، والقصر الصغير ، وهذه الثغور كانت الحرب حولها سجالا . . .

وتعززت الحركة الجهادية بشفشاون بفلول الاندلسيين الذين نزحوا فارين بدينهم إلى العدوة المغربية ، ورحب بهم أهل هذه المناطق الجبلية ، واستقبلهم بنو راشد بما يجب من الحفاوة والمساعدة . . .

بذلك اطمأنت الجالية النازحة من الاندلس على نفسها ، وتزعم آل المنظري الاندلسيين الذين أقاموا بحصن تطوان ، و ستطاعوا كسب عطـف وود بني راشد بشفشاون ، بل توطدت العلاقة بين الرواشد وآل المنظري وتمتنت الروابط بينهما ، وتوجت بالمصاهرة ، حيث زفـت الشريفـة العلميـة الادريسية الحسنيـة الحرة بنت علي بن راشد إلى القائد محمد المنظري بتطوان .

وكان هذا الزواج عربونا على سعة أفق بني راشد ، وبعد نظرهم وصدق نيتهم في الجهاد .

وبهذا الزواج الموفق اشتدت وطـأة المجاهدين على العدو المحتل لاهم مدن السواحل الشمالية ، واستطاعت الاميرة الراشدية أن تنهض بمسؤولية جسيمة في تسيير دفة الامور الجهادية والسياسية ، وفي توطيد العلاقة بين الاسرتين المجاهدتين بتطوان وشفشاون ، سواء في حياة زوجها أو بعد وفاته .

وحكمة هذه السيدة جعلت منها شخصية بارزة في شمال المغرب يحسب لها حسابها ، سواء من طرف البرتغاليين بالسواحل المغربية أو من طرف أتراك الجزائر وغيرهم .

ومن دواعي كتابة هذه الترجمة المقتضبة الدور الذي قامت بـه الست الحرة بمنطقة هـامة من شمال المغرب ، وفي فترة حرجة من تاريخنا الوطني .

هذا وكان بودي أن تكون ترجمتها أوسع مما هي عليه الآن ، لكنني أمام ندرة المصادر من جهة ، وأمام إلحاح بعض الاخوان في تناول موضوع الست الحرة من جهة أخرى ، أجدني مضطرا للاكتفاء بهذه الترجمة آمـلا أن تتاح الفرصة للتوسع في ترجمة هذه السيدة المحترمة ، راجيا من الله تعالى أن يمدني بالعون والتوفيق ، انه نعم المولى ، ونعم المعين .

www.tetouanhadit.com

أميرة الجبل الحرة بنت علي بن راشد

زوجة السلطان أحمد الوطاسي ت : 956 هـ .

الست الحرة من الشخصيات البارزة من أسرة بني راشد بشمال المغرب في القرن السادس عشر الميلادي .

حظيت بشهرة واسعة النطـاق في الشمـال الغربي من افريقيا الشمالية . وهي ممن اعتنـى المؤرخون الاجـانب بالحديث عنهـا ، والتعرض بالذكر لايـام حكمها بتطوان . ولعل شهرة هذه السيدة قامت على عدة اعتبارات : فهي ابنـة أمير شفشاون علي ابن راشد ت (917 هـ ـ 1511 م) تلك الشخصية المعروفـة في الداخل والخارج بالنسبة لذلك العصر .

وهي الاخت الشقيقة للوزير أبي سالم الامير ابراهيم بن راشد ، زوجة قائد تطوان محمد المنظري... وحاكمة تطوان في فترة معروفة من تـاريخ المغرب وزوجة السلطان أحمد الـوطاسي (932 ـ 956) ابن السلطان محمـد الشيخ (البرتغالي) (910 ـ 932) الذي اعتبـر زواجه منها في ذلك الوقت شبيهـا بـزواج الملكين الكاثوليكيين

www.tetouanhadit.com

فرديناند (1452 ـ 1516) وإيسابيلا (1451 ـ 1504) ملكي اسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل السادس عشر.

نسبها واسمها :

هي بنت الامير علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد ابن عبد الوهاب بن علال بن عبد السلام بن مشيش « العلمي ».

فهي شريفة النسب « علمية » إدريسية « حسنية » أما اسمها : فقد اختلف فيه المؤرخون بالرغم من شهرتها (بالست الحرة).

ادعى بعض المؤرخين الاجانب أن اسمها هو : عائشة (1) ولذلك فهم يجعلون لفظ (الحرة) لقبا كان يطلق عليها تشبيها لها بأنثى الطائر الحر الذي هو الباز، نظرا لما يتمتع به هذا الطائر من مزايا عديدة يتميز بها عن سائر الطيور، فهي قد شبهت به في نظر هؤلاء لما كانت تتمتع به من ذكاء وشجاعة ونخوة وخبرة سياسية . . .

ويرى الاستاذ محمد داود في تاريخ تطوان أنها لقبت بالحرة تمييزا لها عن الاماء، لان الناس في ذلك العصر كانوا يكثرون من التسري بالجواري ... (2).

لكن اسمها الحقيقي هو (الحرة) لا عائشة اعتماداً على ما ورد مثبتا في عقد زواجها من السلطان أحمد الوطاسي (3).

1) ذكر ذلك عبد الرحيم جبور في كتابه : « أسرة بني راشد الشفشاونية.. » باللغة الاسبانية : طبع بتطوان : 1953 .

2) الاستاذ داود تاريخ تطوان : 1 : 117 مطبعة كريماديس بتطوان: 1959 .

3) المجلد الاول من الوثائق الملكية تقديم وتنسيق الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور ص : 115 .

وإذا كان لفظ الحرة ليس صفة ولا لقبا لها بل هو اسمها الشخصي فهنا نتساءل :

هل كان يا ترى اسم الحرة شائعا بين النساء في ذلك العصر أم لا ؟.

أم هو اسم نقل من الوصفية إلى (العلمية) لغاية من الغايات ولمعنى من المعاني ، كما هو الحال في كثير من الاسماء ؟.

وللاجابة عن هذا لابد من الرجوع إلى الوثائق والمصادر .. وتذكر المصادر التاريخية ان لفظ الحرة اشتهرت به بعض النساء الذائعات الصيت والشهرة في ذلك العصر...

فأم السلطان أبي عبد الله محمد بن الاحمر آخر ملوك غرناطة مثلا غلب عليها اسم (الحرة) واشتهرت به . ويذكر المؤرخون أن هذه السيدة علق بها لفظ (الحرة) إلى درجة تنوسي معها اسمها الحقيقي الذي هو (عائشة).

ويذكر المؤرخون كذلك أن هذه السيدة استطاعت أن تفرض وجودها في التأثير على سير الاحداث بمملكة غرناطة في المرحلة الاخيرة من مراحل دولة بني الاحمر بالاندلس، حيث اشتهرت في شبه جزيرة ايبيريا شهرة واسعة وأصبح اسمها يتردد في المحافل والندوات... وأضحى الناس يتحدثون عن جرأتها وشجاعتها ودهائها ومواقفها العجيبة (1).

ومن هنا لا يبعد أن تكون أم الحرة الشفشاونية تلك الام

1) نهاية الاندلس لعبد الله عنان : 185 ط : 2 بمصر 1958 .

www.tetouanhadit.com

الاندلسية الاصل والتي عايشت الفترة الاخيرة من حياة غرناطة . . . لا يبعد أن تكون تلك الام اختارت لابنتها الاميرة لقب الملكة الغرناطية الذائعة الصيت .

ولا يبعد كذلك أن يكون ذلك من اقتراح والدها الذي عرف بلاط بني الاحمر وعاش في غرناطة في هذه الفترة بالذات .

ويبدو أن اسم (الحرة) كان لـه صدى ملحوظاً عند الجالية الاندلسية المقيمـة بشفشاون في ذلك الوقت ، وكذا عند الجالية الاندلسية المقيمة بتطوان (1) .

وحسبما يبدو أنه نظراً لهذه الاعتبارات سميت الاميرة الراشدية (بالحرة) إعجابا وتقديرا لملكة غرناطة الذائعة الصيت .

ويبدو أن مصدر وهم المؤرخين الاجانب جاء من اشتباه (العلم « بالصفة » فالحرة الشفشاونية ظنوا أن اسمها عائشة كحرة غرناطة ، وبذلك أصبحوا يطلقون على الحرة الراشدية (عائشة) .

وتذكر المصادر التاريخية أن عائشة الحرة ملكة غرناطة زوجة السلطان أبي الحسن ابن الاحمر وأم السلطان محمد أبي عبد الله ابن الاحمر، أطلق عليها لفظ الحرة تمييزا لها عن ضرتها (ثريا) الرائعة الجمال ابنة أحد عظماء المسيحيين والتي هام بها السلطان أبو الحسن على كبر سنه .

والهيام (بثريا) من قبل السلطـان أبى الحسن فتق عبقريـة

1) تثبت الوثائق ورود جالية أندلسية على شفشاون قبل تجديد بناء مدينة تطوان سنة 888 هـ انظر عمدة الراوين : 1 : مخطـوط المكتبة العامة بتطوان بدون ترقيم .

زوجه عائشة الحـرة وأصبحت تتدخل في القضايا السيـاسية... تثبيتا لوجودها ومكانتها ، وتوطيـداً لمستقبل ولديها محمد ويوسف ، وهنا ظهرت عبقريتها وذاع صيتها... (1) .

ومهما يكن من أمر، فان وثيقة عقد زواج الست الحرة بالسلطان أحمد الوطاسي المشار إليها سالفاً أثبتت بما لا مجال فيـه للشك أن اسم الاميرة الراشدية حاكمة تطوان هو (الحرة) لا عائشة .

مـولدهـا ونشأتهـا :

ولدت السيدة الحرة بشفشاون حوالي سنة (899 هـ - 1493 م)

وربيت ونشأت في حجر والدها الاميـر علي بن موسى بن راشد ، وتلقت تعليمها على يد أشهر العلماء بهذه المدينة ولا شك انها بذكائها ومواهبها استطاعت أن تحصل على ثقافة هامة انعكست على تصرفاتها وحياتها فيما بعد .

وفي هذا الموضوع يقول صاحب كتاب (أسـرة بني راشد بشمال المغرب) : « تروي لنا الاخبـار سواء البرتغالية أو الاسبانية أن هذه السيدة النبيلة كانت تتوفر على ذكاء نادر، وأخلاق سامية هيأتها لتأخذ بيدها السلطة ، وذلك بسبب التعليم الذي تلقته من أشهر العلماء ورجال الدين في عصرها . . . (2) .

1) نهاية الاندلس مصدر سابق : 185 .
2) عبد الرحيم جبور مصدر سابق : 24 .

www.tetouanhadit.com

زواجها من القائد المنظري بتطوان :

من المؤكد عند المؤرخين أن الست الحرة زفت إلى القائد المنظري الثاني بتطوان في حياة والدها علي ابن راشد وذلك حوالي سنة : (916 هـ - 1510 م) زفت وهي فتاة مكتملة النضج ، في نحو الثامنة عشرة من عمرها ، وتذكر بعض المصادر أن هذا الزواج كان بمثابة تحالف متين بين إمارة شفشاون وقيادة تطوان من أجل تقوية جبهة الدفاع ضد البرتغاليين المحتلين لثغور شمال المغرب (1) .

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الزواج كان من أبي الحسن علي المنظري الذي توفي عن سن عالية (910 هـ) ، والذي كف بصره في آخر حياته ... (2) .

---

1) نفس المصدر .

2) نفس المصدر .

2) (مكرر) ليس هناك اتفاق على من تزوج الست الحرة من آل المنظري ، فمنهم من يقول : تزوجت بالمنظري الاول أبي الحسن (ت : 910 هـ) وهو الوافد على تطوان من ضواحي غرناطة ، وقال الاستاذ داود : زوجها الاول هو المنظري الثالث حفيد الاول ، والحقيقة أن هذا كان زوج ابنتها الوحيدة من زوجها المنظري الثاني ويؤكد الاستاذ محمد بن عزوز حكيم أن المنظري الثاني هو المعروف بمعاهدته لبني راشد أمراء شفشاون ، وكان زوجها هذا ينيبها عنه في حكم تطوان أثناء غيابه عنها . انظر تاريخ تطوان للاستاذ داود مصدر سابق ، والست الحرة حاكمة تطوان ، للاستاذ بن عزوز حكيم ص : 13 .

زواج السيدة الحرة بالسلطان أحمد الوطاسي (1) :

لقد تحدثت بعض المصادر الاجنبية والعربية عن هذا الزواج (2) والحقيقة أنه كان زواجا لافتا للانظار تحدث عنه المؤرخون ، وعلق باذهان كتاب المذكرات والتراجم .. وذلك لانه زواج سلطان ينتقل من فاس ليتزوج في تطوان وهو في جموعه العديدة ، وحاشيته الكبيرة ، وجيشه الوافر وعدته وعدده ... وبالاضافة إلى ذلك كان السلطان في هذه الرحلة محاطا بحاشية كبيرة من العلماء وكبار المشايخ ، وكل هذا أضفى على هذا الزواج هالة وأعطاه شهرة ، وإذا كان الامر بهذه المثابة ، فما هو المقصود من هذا الزواج يا ترى ؟

وما هي الغايات القريبة أو البعيدة المتوخاة منه ؟

ولماذا كان هذا الزواج في تطوان بالذات ولم يكن في فاس حيث قصور السلطان ومظاهر أبهته ؟ ؟

لعله من الاكيد ان مثل هذه الاسئلة تتبادر إلى ذهن القارئ

---

1) أحمد الوطاسي ثالث ملوك الوطاسيين (932 - 966 هـ) (1524 - 1549 م) في أيامه وقعت المعارك الحاسمة بين السعديين والوطاسيين الى ان غلب الوطاسيون على أمرهم سنة 956 هـ وفتك بهم محمد الشيخ السعدي ، وأحمد الوطاسي هذا هو آخر ملك وطاسي استمر حكمه مدة طويلة على الجزء الشمالي .

2) ابن القاضي في لقط الفرائد في أحداث 948 هـ ومرآة المحاسن ص : 216 ط : حجرية بفاس ونقل عنه صاحب الاستقصاء بالجزء الرابع ص : 154 ط دار الكتاب .

www.tetouanhadit.com

وهو يقرأ عن حادثة زواج السلطان أحمد الوطاسي بالارملة الجميلة الست الحرة حاكمة تطوان .

وإذا كانت الاجابة بالتدقيق عن كل هذه الاسئلة تعد من الصعوبة بمكان نظراً لسكوت المصادر عن ذلك ، فسنحاول على الاقل القاء بعض الاضواء على هذا الموضوع .

نلاحظ أولا : أن علاقة السلطان أحمد الوطاسي بالست الحرة الراشدية لم تكن وليدة يوم وليلة ، أو علاقة سريعة نشأت بعد زيارة السلطان لتطوان سنة 948 هـ ثم تحولت بعد أيام معدودة إلى زواج . بل علاقة السلطان بحاكمة تطوان كانت قائمة قبل هذه الزيارة التي انتهت بالزواج إذ من المعلوم أن علاقة السلطان أحمد الوطاسي بالاسرة الراشدية بشفشاون كانت علاقة وطيدة للغاية حيث كانت تربطه بهذه الاسرة روابط شتى .

فأخت السلطان أحمد الوطاسي (السيدة عائشة) بنت السلطان محمد الشيخ (910 ـ 931) الملقب بالبرتغالي كانت زوجة للامير إبراهيم أخ السيدة الحرة الذي أصبح وزيراً ومستشاراً للملك . وعلى رأس القيادة العسكرية للسلطان أحمد الوطاسي ومن أبرز الشخصيات في الدولة لذلك العهد ، لما كان يتوفر عليه من مواهب فى الميدان العسكري والميدان السياسي والدبلوماسي .

فالسلطان أحمد الوطاسي إذا كان يعرف الست الحرة أخت وزيره وصهره معرفة حقيقية وهي بالاضافة إلى هذا عاملته على تطوان وإقليمها .

ويبدو انه كانت بين السلطان والاميرة مراسلات ومكاتبات فى مواضيع شتى سياسية وغيرها... ومن الاكيد نظراً لهذه الروابط العائلية والسياسية أن هوى الاميرة الراشدية في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب كان وطاسياً لانه في هذه الفترة بالذات كان معظم الناس في المغرب يصنفون إلى صنفين : صنف هواه وطاسي وصنف آخر هواه سعدي لان الدولة السعدية كانت قد ظهرت في جنوب المغرب ابتداء من مطلع القرن السادس عشر الميلادي وكان أبطال من الاسرة السعدية قد قاموا بأعمال جهادية جليلة زعزعت الوجود البرتغالي في الثغور المحتلة بالجنوب .

وبهذا استبشر الناس خيراً بالسعديين ، وأصبح عدد منهم هواه سعدياً في حين ظل عدد آخرمن الناس بالمغرب على إخلاصه وولائه للدولة الوطاسية نظراً لماضيها في الجهاد والنضال . . . .

ونظراً لما كانت تمثله من ملك أصيل وعريق مما جعل بعضهم يردد الكلمة المأثورة : « بعد بني مرين وبني وطاس ما ابقوا ناس» .

ومعنى هذا أن الناس في هذه الفترة بالذات كان فيهم من يميل للسعديين ومن يميل للوطاسيين ولكل اعتباراته ونظرياته .

والاميرة الراشدية بحكم ارتباطها وارتباط شقيقها الوزير إبراهيم بالوطاسيين كان هواها وطاسياً وكانت على النقيض من أخيها لابيها محمد بن راشد حاكم شفشاون في هذه الفترة والذي تذكر بعض الوثائق أن هواه كان سعدياً ، وأنه عمل على الاتصال بمحمد الشيخ السعدي بعد ما استقر الامر للسعديين بمراكش (1) .

1) أسرة بني راشد بشمال المغرب مصدر سابق ص : 27 ـ 28 .

www.tetouanhadit.com

وهذا يفسر لنا (الحركة) التي قام بها السلطان أحمد الوطاسي على شفشاون سنة 948 هـ حيث أخضع محمد بن راشد ثم عفا عنه بعد ذلك لتدخل الوجهاء والعلماء بالصلح بينهما .

وبعد ما أخضع القائد ابن راشد وعفا عنه واصل السير نحو تطوان التي سنراه يحتفل فيها احتفالا كبيراً بزواجه من الست الحرة أخت القائد محمد بن راشد .

و« حركة » السلطان أحمد الوطاسي إلى شفشاون ورحلته إلى تطوان تعرض لها كل من ابن القاضي في لقط الفرائد، والامام أحمد المنجور في الفهرس ومحمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن ص : 216 ثم من جاء بعدهم . .

ومن المعلوم أنه في هذه الرحلة تزوج السلطان أحمد الوطاسي بالست الحرة بتطوان ويبدو أن الرحلة السلطانية ابتدأت من فاس واتجهت نحو الشمال عن طريق القبائل الآتية :

الحيانية ، بني ورياكل ، بني زروال ، بني أحمد ، الاخماس ، فشفشاون . وفي شفشاون كما عرفنا من قبل أخضع السلطان القائد ابن راشد ، وانتهت (الحركة) على شفشاون بالصلح وبتثبيت القائد الراشدي في مركزه ثم بعد ذلك حط السلطان بجموعه الغفيرة بتطوان حيث احتفل بزواجه من الست الحرة .

ويستفاد من الامام أحمد المنجور أن العلماء الذين رافقوا السلطان في هذه الرحلة كانوا يقومون بنشاط ثقافي كالتدريس وغيره . . ويذكر أن شيخه اليسيتني ورفيقه عبد الوهاب الزقاق ،

وعبد الواحد الونشريسي ، كانوا ممن رافق السلطان في هذه الرحلة إلى شفشاون وتطوان إلى جانب شيخهم شيخ الجماعة (علي ابن هارون) وينقل عن شيخه أبي عبد الله محمد اليسيتني أنهم في هذه الرحلة إلى تطوان كانوا يدرسون على شيخ الجماعة علي ابن هارون (خزرجية العروض) وسنلاحظ فيما بعد أن بعض هؤلاء العلماء السالفي الذكر كان ممن وقع على عقد زواج السلطان بالست الحرة حاكمة تطوان .

وقد أثار زواج السلطان أحمد الوطاسي بالاميرة الحرة حقد الاوربيين وضغائنهم حسبما تصرح به بعض الوثائق ، جاء في عمدة الراوين: « ان ملك اسبانيا ـ فليب الثاني (كذا) ـ (1) اغتاظ من تزوج أحمد الوطاسي بالست الحرة ، لان هذا يربط أواصر الصداقة والمودة بين مجاهدي تطوان وشفشاون وبين السلطان فيتحدون ضده . . » (2) وسبقت الاشارة إلى أن بعضهم شبهه بزوج الملكين الكاثولكيين فردناند وايسابيلا (1451 ـ 1516 م) ملكا اسبانيا .

ويبدو أن هذا الزواج كان سياسياً بالدرجة الاولى خاصة وان السلطان أحمد الوطاسي كان يجد نفسه في موقف حرج جداً وذلك نتيجة قيام السعديين بالجنوب الذين أصبحت تشرئب أعناقهم لامتلاك

---

1) الملك فليب الثاني : (1550 ـ 1598) وهذا لم يكن على عهد الست الحرة بل الذي كان على عهدها ملكا لاسبانيا هو الملك شال الخامس ـ كارلو كينطو ـ (1516 1555) وهو سهو أو سبق قلم .

2) عمدة الراوين الشيخ أحمد الرهوني ج : 4 غير مرقم . مصدر سابق .

www.tetouanhadit.com

المغرب كله. وكان قيامهم يعتمد على الدعوة إلى الجهاد وتوحيد صف المغاربة ضد الاجنبي الدخيل...

وكانت سياسة الوطاسيين منذ ظهورهم على مسرح السياسة بالمغرب: مهادنة العدو تارة، ومقاومته في بعض الاحيان، وهذه السياسة لم يكن الجمهور المغربي في مجموعه راضيا عنها بل كانت منتقدة من طرف زعماء الجهاد ومن طرف العلماء... (1).

جاء في الدوحة في ترجمة أحد العلماء المجاهدين - الشيخ محمد البهلولي الذي لفظ أنفاسه وهو يحترق شوقاً إلى الجهاد: «قال بعضهم: يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو (وبرح به) وأمنت الناس عليه، والمسلمون في شوق لذلك، ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحاً وحمد الله وأثنى عليه ففاضت نفسه وهو مسرور لذلك...» (2).

فالسلطان الذي أمر بالغزو (وبرح به) وفرح الناس بأمره،

1) بدأ عهد الوطاسيين بعقد هدنة طويلة الاجل بين الملك الوطاسي محمد الشيخ بن أبي زكرياء: (1470 - 1504) وبين الملك البرتغالي الفنصو الخامس: (1438 - 1481)

2) الدوحة: 45 - 46 ط: حجرية بفاس.

2) (مكرر) تسلمت الست الحرة حكم تطوان من أخيها مولاي إبراهيم الذي آل إليه حكم المنطقة الشمالية بعد موت أبيه مولاي علي بن راشد سنة: 917 هـ.

فآل المنظرى بتطوان كانوا تابعين لبني راشد بشفشاون، انظر ترجمتنا لابراهيم بن راشد فى كتاب الحياة السياسية... بشفشاون وأجوازها: ط: وزارة الاوقاف 1982. وانظر كتاب بن عزوز حكيم عن الست الحرة. ص: 25.

هو السلطان أحمد الوطاسي وذلك بعد موت أبيه محمد الشيخ (البرتغالي) وتنحيته لعمه أبي حسون سنة 936 هـ.

إلا أن السلطان أحمد بعد ذلك تبع سياسة أبيه وجده فى المهادنة والمناوشة أحياناً.

وفي سنة (948 هـ - 1541 م) كان السلطان أحمد الوطاسي قد خسر عدة معارك مع السعديين وكان يريد أن يحافظ على ما بقي له من شمال المغرب.

فكان عليه أن يتفقد هذه الجهات وأن يستوثق من حكامها ويمتن صلاته بهم... ولو عن طريق الزواج.

ولهذا فزواج السلطان أحمد الوطاسي بحاكمة تطوان كان زواجاً سياسياً بالدرجة الاولى، ومما يؤكد ذلك أن السلطان لم يصحب عروسه معه بعد بنائه بها بل تركها فى تطوان تحرس الثغور وتنظم عمليات الحصار على سبتة وعلى غيرها من الثغور المحتلة بالشمال.

وفي هذا الظرف بالذات كان الخرق قد اتسع على الراتق وكان السلطان أحمد الوطاسي قد خاض مع السعديين عدة معارك لم يخرج منها بطائل. وكان في هذه الاثناء يحاول أن يهدئ الاوضاع في الجزء الذي بقي له من المغرب.

فغايات الزواج وأهدافه كانت هي الوصول إلى تهدئة الاوضاع بأقصى شمال المغرب.

وبهذا ندرك أن الزواج من الست الحرة كان تحالفاً مع أبرز شخصيات شمال المغرب فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ الوطاسيين قصد استقرار الاوضاع، وتثبيت الحكم الوطاسي في هذه المناطق.

www.tetouanhadit.com

حكم الست الحرة بتطوان

تؤكد الوثائق العربية والاجنبية أن الست الحرة حكمت تطوان ونواحيها فترة من الزمن ، فإذا اعتبرنا أنها شاركت زوجها محمد المنظري في الحكم ، تكون هذه السيدة قد حكمت تطوان ونواحيها ما يزيد عن ثلاثين سنة، أي منذ زواجها بالقائد المنظري سنة (916هـ - 1510 م) إلى زوالها من الحكم سنة : (949 هـ - 1542 م) .

والغريب في الامر : أنه خلال هذه المـدة الطويلة من حكومة الست الحرة نرى المصادر العربية تكاد تكون ساكتة عن الاحداث اللهم إذا استثنينا بعض الاشارات العابرة هنا وهناك فمن ذلك مثلا ما أشار إليه ابن عسكر في الدوحة عند ترجمته (للهاجوس المجهول) حيث قال : « وأتوا به إلى تطوان في ولايـة الست الحرة بنت علي ابن راشد وذلك فى حدود الخمسين ». أي من القرن العاشر الهجري وتعرض لزواجها من السلطان أحمد الوطاسي ابن القاضي في لقط الفرائد ، ومحمد العربي الفاسي في مـرآة المحاسن وغيرهم . . . إلا أن كل ذلك إشارات عابرة لا أقل ولا أكثر... وهكذا نرى وبكل أسف أن مصادرنـا الوطنية لم تعتن بالحديث عن هذه السيدة عنـاية

تناسب مركزها الاجتماعي والسيـاسي.. ونجد على العكس من ذلك أن المصادر الاجنبية تحدثت عن الست الحـرة في منـاسبات عديدة ، إلا أنه مما يلاحظ في هذا الموضوع أن كتابات الاجانب عنها بالرغم مما لها من أهمية فانها لا تخلو من أخطاء فاضحة .

فمن ذلك مثلا ما سبقت الاشارة إليـه من أنها كانت تسمى (عائشة) ومن ذلك مـا ذكره الكولونيل هنرى دى كاسترى من أن الست الحرة هي والدة ابن عسكر صاحب الدوحة (1) .

ورد عليه مقالته هذه كل من الاستاذ عبد الرحيم جبـور في كتابه (أسرة بني راشد بشمـال المغـرب) والاستاذ محمد داود بتاريخ تطوان (2) .

ومن ذلك أيضاً الادعاء بأن السيدة الحرة انتهت حياتها بالقصر الكبير، وأنها دفنت خارج باب سبتة من هذه المدينة . . . (3) وهذا غير وارد في المصادر الوطنية ، وربما كان مصدرهذا الادعاء اعتقاد بعض الكتاب الاجانب بأنها والدة صاحب الدوحة ابن عسكر، التي كانت تسكن مع ولدها بالقصر الكبير .

والمتواتر عند الشفشاونيين أن السيـدة الحـرة انتهت حياتها بشفشاون حيث كانت في رعاية أخيها الاميـر محمد ، وأنها دفنت

1) السلسلـة الاولى المجلد الاول ص : 133 . نقل مقـالته هذه الاستاذ عبد الرحيم جبور في كتابه : « بنو راشد بشمال المغرب...) ص : 25 .

2) تاريخ تطوان للاستاذ محمد داود : ج : 1 : 120 .

3) تابع لمقالة دى كاستر السالفة .

www.tetouanhadit.com

برياض الزاوية الريسونية بهذه المدينة وما يزال قبرها معروفا وحاملا لاسمها إلى اليوم.

وكتابات المؤرخين الاجانب اهتمت بالحديث عن الاسرة الراشدية وبخاصة عن الامير إبراهيم بن راشد، والاميرة الحرة.

فعن الحرة مثلا يقول الكاتب سبستيان دبركاس Sebastian de Vargas:

« انها كانت شديدة الانفعال: ففي إحدى المناسبات تشاجرت مع حاكم سبتة: ALFONSO de Noranha فلجأت إلى العنف والحرب لانها كانت شديدة الاندفاع وميالة إلى الحروب.. وانها كانت مهتمة بتجارة الرقيق من المسيحيين على مستوى عال، وكانت سفنها دوما تجوب البحار، وكانت المراكب الجزائرية تلقى حفاوة بمرسى تطوان...» (1) وهذا النص بالرغم من ظهور الانفعال على صاحبه فهو يعطينا فكرة عن بعض الجوانب من سياسة الست الحرة حاكمة تطوان فهو يقول: انها لجأت إلى الحرب مع حاكم سبتة والحقيقة أن اللجوء إلى الحرب من طرف المغاربة كان يثير المحتلين الغاصبين، لانهم يريدون من السكان المجاورين لمراكز احتلالهم أن يلتزموا الهدوء، وأن يرضوا بالامر الواقع.. وهذه سياسة كانت ترفضها الست الحرة كما كان يرفضها الشعب المغربي برمته.

والغريب أن الاوربيين المحتلين كانوا يرون مقاومة احتلالهم ما هي إلا اندفاع وحب للحرب..!! ويذكر هذا النص: أن الست الحرة كانت لها عناية بالتجارة فى الرقيق من المسيحيين... وكانت

1) أسرة بني راشد بشمال المغرب ؛ 24.

تجارتها هذه « على أعلى مستوى »!! وتوصف أحيانا: « بعدوة النصارى ».

وكأن الاروبيين بهذا المنطق يريدون أن يتجروا وحدهم فيما عداهم من الشعوب، أما أن يتجر غيرهم في المسيحيين فهذا مما يسجل ويستهجن ويشهر به...!!

ويتعرض النص للحفاوة التي كانت تلقاها السفن الجزائرية من طرف الست الحرة بمرسى تطوان... ومن المعلوم أن حفاوة المغاربة بالجزائريين كانت سياسة متبعة من قديم الزمن.

والنص هنا يشير إلى وحدة خطة الجهاد بين المغرب والجزائر ضد المسيحيين المحتلين (1) وهو في نفس الوقت يشنع على الست الحرة حفاوتها بالسفن الجزائرية؛ لان تضامن وحدة شعوب المغرب العربي كان مما يحز في نفوس المستعمرين، وأعداء الامة العربية والاسلامية وما يزال.

ويشير النص كذلك إلى أن أسطول الست الحرة كان يجوب البحار دوما، وهذا كان مما يهدد المصالح الامبريالية والاستعمارية في ذلك الوقت...

1) تذكر الوثائق التاريخية: أن الست الحرة كانت لها علاقة وثيقة بخير الدين (بربروسا) قائد الجهاد البحري بالجزائر حيث كانت تشترك معه بسفنها في بعض العمليات البحرية، وهذا ما جعلها تتحفظ من (اتفاقية الهدنة؛ والصداقة بين بلاط فاس واشبونة (1537 ـ 1539) لان هذه الاتفاقية كانت تهدف إلى الحد من نشاط الجهاد البحري في هذه المنطقة من شمال المغرب.

www.tetouanhadit.com

ونرى الكاتب هنا بالرغم من قصر النص يتعرض لذكر نقط حساسة بالنسبة لذلك العصر . . .

1) محاربة المحتلين للثغور المغربية ومقاومتهم من طرف المغاربة ، وهذه كانت قضية تشغل بال الجمهور المغربي .

2) خطورة العمليات القرصنية ومخر سفنها للبحار . . .

3) التجارة في الرقيق . . .

وبطبيعة الحال تعد هذه القضايا من أبرز أحداث القرن السادس عشر الميلادي .

فهناك عدة لقطات من هذا النوع نجدها بالمصادر الاجنبية التي تحدثت عن هذه الفترة بهذه المنطقة .

والنص السالف الذكر في مجمله يعطينا نظرة عن تأزم الاوضاع بين المغاربة والبرتغاليين ، ولا شك أن عمليات المقاومة في هذه الفترة كانت مما يقلق بال المحتلين ، وينغص عليهم .

وتحامُل الكاتب البرتغالي على الست الحرة واضح في النص ، وهذا يدل على أن هذه السيدة كانت تقف شجى في حلق البرتغاليين وتعمل على مقاومتهم بمختلف الاساليب ، ويدل على أن الست الحرة حاكمة تطوان كانت خبيرة بقضايا عصرها ، وتحارب أعداءها بمختلف الاسلحة .

وفي الفترة الاخيرة من حكم الست الحرة لتطوان ونواحيها نجد المقاومة المغربية يقظة وحذرة . . . ويستفاد من ابن عسكر المعاصر للاحداث ان الناس في هذا الظرف بالذات كانوا حذرين

مترقبين ، وأن العمليات الجاسوسية كانت على أشدها... (فالجاسوس) الذي ترجم له ابن عسكر بالرغم أن أمره لم يكن واضحاً تماماً، بل ربما كان جانب (الجذب) أرجح فيه من جانب الجاسوسية بالرغم من ذلك فان الشكوك كانت تدور حوله ، وألقي عليه القبض وقدم لحاكمة البلاد الست الحرة بتهمة الجاسوسية... ونرى أن هذه الحادثة مثلا كانت بعد زواج السلطان من الست الحرة في حدود الخمسين من القرن كما صرح بذلك ابن عسكر ، والراجح انها كانت سنة 949 هـ . ـ الدوحة : 46 ـ .

وسنرى أنه في هذا الوقت بالذات كان أفراد من أسرة المنظري -المتنقلين بين فاس وتطوان- يعملون ضد الحكم الوطاسي.

ونجح محمد الحسن المنظري في الانتقام من السلطان أحمد الوطاسي حيث استطاع أن ينجح في ثورته ضد زوج السلطان وعاملته بتطوان التي كانت تمثل الحكم الشرعي بالبلاد .

ولعل من أهم أسباب نجاحه أن الناس في هذا الظرف الحرج من تاريخ المغرب كانوا يسمعون عن السعديين وعن انتصاراتهم على البرتغاليين في الثغور بالجنوب ومثل هذه الاخبار كانت تخلق موجة من السخط ضد الوطاسيين وضد حكامهم، والموالين لهم .. (1).

1) (مكرر) ما علل به الاستاذ داود سقوط حكومة الست الحرة من انه ربما كان نتيجة موالاتها للبرتغاليين ، لا ينسجم مع النصوص التاريخية ، وكذا ما علل به عدم ذكر السكيرج للست الحرة كحاكمة لتطوان ، من انه كان حكما غير عادي . . كل ذلك لا يتفق مع الاخبار التاريخية الواردة في المصادر العربية والاجنبية . انظر تاريخ تطوان ج : 1 : 123 ـ 124 .

www.tetouanhadit.com

وفي هذا الجو المفعم بالدعاية ضد الوطاسيين قضي على حكم الست الحرة بتطوان .

وانسياق الست الحرة مع السياسة الوطاسية كان مما يلاحظه محمد ابن راشد قائد شفشاون على أخته حاكمة تطوان (1) .

وتحدثنا المصادر : « أنه في يوم 02 اكتوبر 1542 م اختفى من فاس محمد الحسن المنظري الباجي الاندلسي بسبب خلافات عميقة مع السلطان أحمد الوطاسي وتوجه إلى تطوان مرفوقاً بأسرته وبعض فرسانه تاركا متاعه وأملاكه . . . وطرد الست الحرة بعد أن جردها من أملاكها ، وفي 22 اكتوبر أعلن استقلاله عمليا عن ملك فاس . . . » (1) .

وهكذا نرى أن الثائر محمد بن الحسن المنظري استطاع أن يستغل ضعف السلطان أحمد الوطاسي فيستقل بحكم تطوان لفترة قصيرة من الزمن . . . وكانت هذه الاحداث سنة : 949 هـ ـ 1542 م.

---

1) أسرة بني راشد بشمال المغرب : 26 .

1) (مكرر) ذهب الاستاذ محمد بن عزوز حكيم إلى أن التنفار الذي كان بين الحرة وأخيها محمد ، كان من أجل توسيع منطقة نفوذه ، ولو بتآمره ضدها مع البرتغاليين بسبتة . . .

وفي هذا نوع من التحامل على محمد بن راشد، ويترجح لدي ما أكدته في ترجمتيهما من أن كل واحد منهما أخذ اتجاها معينا ، فبينما كان محمد قد ربط علاقته مع السعديين ، كانت الست الحرة ما تزال على وفائها للوطاسيين . انظر الست الحرة حاكمة تطوان لابن عزوز ص : 43 . مرجع سابق .

عرفنا أن الست الحرة حكمت تطوان لفترة من الزمن ، ومن المعلوم أن حكم المرأة وتدخلها في الشؤون السياسية لم يكن من الظواهر العادية . وبخاصة في المجتمعات الاسلامية ، إلا أننا بالرغم من ذلك نجد المؤرخين يحدثوننا من حين لآخر عن نساء قمن بأدوار سياسية وعسكرية هامة ، وفي نفس هذه الفترة التي تنتمي إليها الست الحرة قامت بعض النساء بأدوار في الحكم والسياسة ، فمن ذلك مثلا : السيدة زهور الوطاسية (1) التي اعتمد عليها محمد الشيخ ابن أبي زكرياء الوطاسي في الحفاظ على فاس الجديد . وفى تسيير العمليات الحربية لمقاومة الحصار المضروب على هذه المدينة ، ويثبت المؤرخون أن هذه السيدة نجحت نجاحاً باهراً فى هذه المهمة .

وكان نجاحها من الاسباب التي مكنت للدولة الوطاسية في أن تخلف الدولة المرينية في الحكم .

وتحدثنا المصادر التاريخية كذلك عن الدور الذي قامت به الست مريم بنت محمد الشيخ السعدي فى الحفاظ على قصبة مراكش أيام الصراع الدائر بين محمد المتوكل وعميه عبد المالك وأحمد المنصور (2) .

وفي نفس هذه الفترة تحدث المؤرخون بإعجاب عن الدور الذي قامت به السيدة سحابة الرحمانية والدة أبي مروان عبد الملك

---

1) زهور الوطاسية بنت منصور بن زيان الوطاسي انظر: الجذوة 1 : 211 ط دار المنصور الرباط والاستقصا 4 : 117 و 120 .

2) انظر زهرة الحادي للافراني ص : 64 الطبعة الثانية والاستقصا ج : 5 ص : 68 .

www.tetouanhadit.com

السعدي لدى السلطان مراد العثماني حيث استطاعت هذه السيدة بذكائها وحسن سياستها أن توطد الملك لولدها وأن تجلب له عطف الامبراطورية العثمانية وبذلك تغلب عبد الملك وأخوه أحمد المنصور على ابن أخيهما محمد المتوكل قتيل معركة وادي المخازن (1) .

وتحدثنا المصادر التاريخية كذلك عن الدور الذي قامت به السيدة - صوت النساء - والدة الاميريغمراسن لدى السلطان الحفصي أبي زكرياء يحيى (628 هـ - 647 هـ) .

حيث نابت هذه السيدة عن ولدها في تقديم مراسيم البيعة للسلطان الحفصي الذي تقبلها بقبول حسن ، بعدما كان ناقماً على ولدها ، بل تقدمت للسلطان باقتراحها في العفو وشروطه ، وبذلك ضمنت لولدها العودة إلى رئاسة قومه من بني عبد الواد تحت طاعة الخليفة الحفصي ، ونال بعد ذلك حظوة كبيرة ودان له المغرب الاوسط ، كل ذلك بفضل الدور الديبلوماسي الذي قامت به تلك السيدة (2) .

وإذا أضفنا هذا إلى ما عرفناه من قبل عن السيدة (الحرة) عائشة زوج السلطان أبي الحسن ابن الاحمر وأم آخر ملوك غرناطة بالاندلس فاننا نجد أن تدخل النساء في الشؤون السياسية لم يكن شيئاً غير معروف البتة في تاريخنا الاسلامي بل نحن إذا ما جاوزنا هذه الفترة فاننا نجد التاريخ يحدثنا من حين لآخر عن نساء كان

1) انظر النزهة 61 و 62 . . . والاستقصا ج : 5 ص : 62 .

2) انظر تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي ج : 2 : 15 .

لهن دور في الميدان السياسي سواء في مصر ، أو بغداد أو الاندلس أو غيرها .

إلا أن حكم الست الحرة لتطوان يتميز بسمات خاصة :

1) استقلال هذه السيدة بالحكم في هذه المدينة وإقليمها لفترة طويلة من الزمن .

2) وجود مركز حكمها في منطقة حساسة تشرف على ملتقى الابيض المتوسط بالمحيط الاطلسي ، قريبة من أوربا .

3) وجود إقليم حكمها بين عدة ثغور محتلة احتلالا أجنبياً ويواجه أخطاراً صليبية محدقة من جميع الجوانب .

4) وجود حكومتها في عصركانت تتصارع فيه الامبراطوريات العظيمة في الشرق والغرب من أجل تركيز نفوذها على المناطق الاستراتيجية بالعالم ، وكانت منطقة تطوان بحكم موقعها في غرب الابيض المتوسط وبحكم وجود عدد من المهاجرين الاندلسيين بها ، وبحكم تزعمها في هذه الجهات لحركة الجهاد في البر والبحر ضد المسيحيين ، وبحكم كونها تمثل الجدار الواقي لداخل المغرب . . .

لهذه الاعتبارات وغيرها كانت هذه المنطقة مطمعاً وهدفاً للقوات المتصارعة في هذه الفترة ، خاصة منها القوة العثمانية في الشرق ، التي بسطت نفوذها على معظم الساحل الجنوبي للابيض المتوسط ، والقوة الصليبية في شبه جزيرة ايبريا بزعامة الامبراطور كارلوكينطو .

ولوجود هذه الظروف والملابسات يمكننا اعتبار حكم الست

www.tetouanhadit.com

الحرة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب يتميز بسمات خاصة ، وهذه السمات أضفت على حكم الست الحرة لتطوان وإقليمها صبغة متميزة جعلت بعض الكتاب والمؤرخين يتحدثون عن هذه السيدة بكثير من الاعجاب .

ولاحظنا أن شغف المؤرخين الاجانب بالحديث عن الست الحرة جعلهم يفترضون لها إسماً غير إسمها ، وولداً غير ولدها ، ومدفناً غير مدفنها ...

فالست الحرة إذاً شخصية بارزة لامعة قامت بأدوار سياسة في منطقة لها أهميتها الكبيرة في ذلك العصر ، وفي فترة من أحرج فترات تاريخنا الوطني .

فألمعية الست الحرة جاءت نتيجة لتحملها الاعباء السياسية في زمان ومكان لهما ظروف ومميزات خاصة .

ولعل هذا مما جعل السلطان أحمد الوطاسي يطلب ودها ويدها معاً ، لتصبح له حليلة وزوجة ، وحليفا ومعينا ...

عقد زواج الست الحرة بالسلطان الوطاسي :

لا بأس بالقاء نظرة موجزة عن وثيقة عقد الزواج الذي تم بين السلطان أحمد الوطاسي والست الحرة .

أشرت فيما سلف إلى أن السلطان أحمد الوطاسي قدم إلى تطوان في جموع عديدة وجيش جرار ومعه مجموعة من العلماء الكبار ، طليعة علماء المغرب في ذلك العصر وعلى رأسهم شيخ الجماعة (علي ابن هرون) وفي تطوان جرت حفلات الزفاف، وكتب

عقد الزواج ببالغ العناية والاهتمام وبالقاء نظرة على هذا العقد نجد أن أول ما يلفت النظر إليه : أسلوبه المنمق ، وعباراته المنتقاة المحبوكة مما جعله على درجة رفيعة من البلاغة وجمال التعبير ...

ويبدو من خلال قراءة العقد أن كاتبه كان على جانب من المعرفة بالكتاب والسنة ، لان معظم فقراته مقتبسة من الآيات القرآنية الكريمة ، ومن الاحاديث النبوية الشريفة .

فالعقد من حيث أسلوبه وصياغته يعد من غرر الوثائق المكتوبة في موضوعه : جمال أسلوب ، وجزالة تعبير ، وحبكة أدبية ، وبراعة في الصياغة والاداء ...

وذلك غير غريب في عقد زواج بين ملك من سلالة الملوك ، وبين أميرة شريفة النسب نبيلة المحتد .. ذات مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة .

وعرفنا فيما سلف أن حاشية السلطان كانت تضم مجموعة من العلماء الكبار مثل شيخ الجماعة علي ابن هارون وعبد الواحد الونشريسي ، وعبد الوهاب الزقاق ، وأبي عبد الله محمد اليسيتني وغيرهم ... ونظراً لما عليه هذا العقد من براعة في الصياغة وجمال في الاسلوب والاداء فانني لا أستبعد أن يكون من إنشاء أبي مالك الشيخ عبد الواحد الونشريسي لان هذا الشيخ كان معروفاً بالتفوق في مثل هذه الميادين ، وكان مشهوراً بخطبه البليغة وبأسلوبه الرائع ... (1) .

(1) انظر نزهة الحادي ص : 21 والاستقصا ج : 4 ص : 101 و 102 .

www.tetouanhadit.com

ومما يرجح هذا الاحتمال وجوده ضمن مجموعة العلماء الذين كانوا برفقة السلطان في تطوان .

ومهما يكن من أمر فان أهم عناصر عقد الزواج بين السلطان والست الحرة تتلخص فيما يلي :

1) مقدمة تتضمن الحمد والثناء ، والاقرار بوحدانية الله تعالى وبرسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

2) التعريف بالاسرتين المتصاهرتين ، وذكر عمود نسبهما والاشادة بهما .

3) ذكر الصداق ومقداره ، ومعجله ومؤجله ووصف ما اشتمل عليه من نقود وإماء وبغال وملابس .

4) ذكر الولي في هذا النكاح والتعريف به والاطراء والثناء عليه .

5) تذييل العقد بامضاءات الشهود والقاضي .

أما فيما يتعلق بمقدمة هذا العقد فان كل جملة من جملها صيغت صياغة تعلي من شأن الزواج وقدره وتشيد بحكمه وفوائده ومن ذلك قول كاتب العقد مثلا :

« ... والحمد لله الذي أكمل على الانسان عوارف الانعام وخلق له من نفسه سكنا ليكون أبلغ في الائتلاف والانتظام ، جعل بينهما من المودة والرحمة ما أكد أسباب الالتحام وبث منهما خلقا كثيراً عمر بهم الارض بحسب حكمته الواضحة الاعلام ، وأجراهم على ما سبق به علمه في الافتتاح والاختتام تعجيلا وتأجيلا... (1) .

---

1) الوثائق الملكية المجلد الاول ص : 348 .

وبعد مقدمة طويلة في عبارات منتقاة مشرقة مهد الكاتب للتعريف بالاسرتين تمهيداً لطيفاً ثم حشد الاوصاف الجليلة والالقاب الفخمة على البيتين الكريمين ، وفي أثناء التعريف بهما يعطينا حقائق تاريخية هامة فمن ذلك مثلا أنه يصل نسب الوطاسيين للمتونة مع أنه من المعروف عند النسابين والمؤرخين أن بيت الوطاسيين فرع من بني مرين (1) .

لعله كانت هناك ظروف تقتضي هذه النسبة إلى المرابطين خاصة وانه في هذه الفترة كانت القوة السعدية قد استولت على جنوب المغرب وكان الوطاسيون يحاولون تعزيز وجودهم بكل الوسائل ومن جملة وسائلهم الانتساب إلى لمتونة . المكونين لدولة المرابطين من قبل .

ويؤكد العقد على القطع بنسبة بني راشد إلى البيت النبوي الكريم . وهذا هو المشهور والمعروف عند النسابين والمؤرخين (2) .

وفي النسبة الاولى يقول : « ابن أبي زكرياء يحيى ابن زيان بن عمر بن علي بن يوسف بن أبي مكي بن مجبى ابن الوزير بن القائد بن سيد الملوك اللمتوني الوطاسي حفظ الله جلاله ، وحرس كماله ، ونصر لواءه ، وخذل أعداءه ، وأبقى ذكره المبارك وثناءه... »

---

1) علق الاستاذ عبد الوهاب بن منصور على هذه النسبة قائلا : « من المحقق ان بني وطاس بطن من قبيلة بني مرين ' ولكن وجد من المؤرخين من نسبهم إلى لمتونة ' ولعل ذلك لعلل سياسية » نفس المصدر ص : 350 .

2) الوثائق الملكية 1 : 350 .

www.tetouanhadit.com

كل ذلك بعد ما وصف كل ملك من الملوك الوطاسيين بالاوصاف الحميدة وأضفى عليه ما شاء من الالقاب الجليلة .

أما عن بيت بني راشد فيقول : « إلى أن هداه قائد التوفيق إلى بيت الشرف الذي تكاثفت حجب الصون على أكتافه ، وأخذت عصم الطهارة بأوساطه وأطرافه ، وانعقد الاجماع على صحة شرفه ، فلا يفوه أحد بخلافه ، وهو بيت الشريف الكبير المقدار ، الحميد الايراد والاصدار . . . » (1) .

ويشير العقد كذلك إلى قضية هامة ، وهي العلاقة بين بني راشد حكام شفشاون ، وبين البيت الوطاسي المالك .

ومن المعلوم أن أفراداً من بيت بني راشد كانوا قد ظهروا على مسرح الاحداث بشمال المغرب قبل تربع جد الملوك الوطاسيين على عرش البلاد .

ومن المعلوم كذلك أن العلاقة بين بني وطاس وبين بني راشد لم تكن دائماً حسنة ، بل كثيراً ما كان الوطاسيون يلجأون إلى استعمال القوة ضد الامارة الراشدية بشفشاون ، ومن ذلك الزحف على هذه المدينة سنة 901 هـ من قبل محمد الشيخ ابن ابي زكرياء الوطاسي ، وفي زحفه هذا أخضع علي ابن راشد وفرض عليه الاقامة الاجبارية بفاس (2) .

---

1) نفس المصدر ص : 351 .

2) عروسة المسائل ص : 17 لابي عبد الله محمد الكراسي ، بتحقيق الاستاذ عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط . 1963 . ولقط الفرائد لابن القاضي في احداث 901 هـ مخ . خ . ع . ر : 270 . ك .

وهناك زحف آخر على شفشاون قام به السلطان أحمد الوطاسي المتحدث عنه في هذا العقد (1) .

ومع ذلك فان كاتب العقد تغاضى عن ذلك كله وحزم باخلاص بيت بني راشد للبيت الوطاسي ، وأثبت أن العلاقة بينهما هي علاقة ود وخدمة من جانب بني راشد للملوك الوطاسيين فقال : « . . . والمعلوم ما له من صريح الود وخالص الاعتقاد في سلف مقام هذا السلطان الاحمدي الآثار ، وسالف الخدمة التي أوجب الوفاء رعيها على تداول الاحقاب ، وتعاقب الاعصار السيد الشريف المجاهد المثاغر المبرور المقدس المرحوم أبي الحسن علي ابن ساداتنا الشرفاء الجلة الاعلام سرج الهدى ومصابيح الاسلام المعجز خطر شأنهم فلا تستوفيه الالسنة والاقلام ، وكيف يستوفى ثناء من سما فوق السماء مجده فسيدة نساء العالمين أمه ، وسيد كرام المرسلين جده فكل ثناء دون ثنائهم فحسبنا ذكرهم تبركا بأسمائهم . . . » (2) .

وهكذا يسترسل في ذكر الاوصاف الكريمة ، والالقاب الشريفة إلى أن يصل بنسب علي ابن راشد إلى «القطب» الشيخ عبد السلام ابن مشيش ثم إلى المولى إدريس ، فإلى علي ابن أبي طالب .

وبعد التعريف بالبيتين الكريمين وذكر العلاقة بينهما تطرق العقد إلى صميم الموضوع فقال : « فخطب فيه ابنته الاصيلة البرة المسماة بالحرة أجمل الله صونها وأحسن على طاعته عونها ...» (3) .

---

1) نفس المرجع الأخير في احداث : 948 هـ - 1541 م .

2) الوثائق الملكية م : 1 : 351 .

3) نفس المصدر .

www.tetouanhadit.com

ثم يصف هذه الخطبة باليمن والبركة والسعد.. وبعد ذلك يتعرض كاتب العقد لمقدار الصداق ونوعه فيقول: «.... وعلى صداق مبارك جملته بين نقد أوجبته المياسرة اعجالا، وكالىء اقتضته المكارمة إمهالا: أربعة آلاف أوقية من النقرة الجارية السكية، وعشرون مملوكة من وسط رقيق السودان، وعشرة من البغال المتوسطة في نوعها وحوائج تشمل على ثوبي موبرة، وفضلتى وجه اسكندراني، وفضلتي غريض، وسنين وسبنيتين، وربع المماية وأربعة مناشف، وأربعة كنابس كل ذلك من الجديد العالي في جنسه...» (1).

ومما لا شك فيه أن هذه الفقرة المتعلقة بالصداق ونوعه ووصفه تحتاج إلى دراسة من الناحية الاقتصادية، والاجتماعية... فالصداق يشتمل على عشرين مملوكة من رقيق السودان، وعلى أربعة أوقية (النقرة) ثم على أنواع من الثياب والملابس ثم هناك قضية تشطير الصداق إلى معجل ومؤجل، وذكر الاشياء المتوسطة في نوعها والعالية فيه... إلخ. ويستفيد من هذا العقد دارس الاوضاع الاجتماعية وتقاليد الناس، وأعرافهم فى هذه الفترة من تاريخ المغرب.

وبعد ما فرغ الكاتب من وصف الصداق ومن ذكر معجله ومؤجله قال: «تزوجها على كلمة الله العالية في الكلم، وعلى سنة سيدنا ومولانا محمد التي عمر بركتها جميع الارض أنكحه أياها بإذنها ورضاها أخوها للاب السيد الشريف العالي القدر المنيف معدن

1) نفس المصدر.

الشرف والفخار ومنتهى المجد والوقار وجامع أشتات الفضائل الكبار التي على مثلها يثنى، وإليها يشار...» (1) ثم يغدق على أخي العروس أوصافاً هي غاية فى التمجيد إلى أن يقول: «..أبو عبد الله محمد، وقبله الزوج نصره الله وارتضاه، وألزمه نفسه الكريمة وأمضاه على ما قرره الشرع الواضح واقتضاه، والله تعالى يؤلف بينهما على ما يحبه ويرضاه..» (2).

وأخو العروس هذا أشرنا إليه فيما سلف وعرفنا أن السلطان أحمد حاصره بشفشاون وتغلب عليه. ثم أقره فى مكانه بعد ما تدخل الوجهاء والعلماء في الصلح بينهما.

وهنا يثبت كاتب العقد أنه هو الذي تولى ولاية النكاح على أخته الست الحرة ومنحه الكاتب من الاوصاف والالقاب الشيء الكثير.

ويغلب على الظن أنه صحب السلطان أحمد الوطاسي فى رحلته إلى تطوان، وأقام معه إلى أن تمت مراسيم الزواج.

وأشرنا من قبل إلى أن بعض الوثائق ذكرت أن محمدا هذا أخ الست الحرة عمل على الاتصال بالسعديين بعد فتحهم لمراكش ونجده في سنة 959 هـ - 1552 م من بين حاشية السلطان محمد الشيخ السعدي بفاس - ويستفاد من ابن عسكر في الدوحة أن محمدا هذا لعب دوراً خطيراً في المناظرة التي جرت بين الشيخين: عبد الله

1) نفس المصدر ص: 342.
2) نفس المصدر.

www.tetouanhadit.com

الهبطي (ت 963) ه ومحمد اليسيتني (ت 959) ه (1) بمحضر السلطان محمد الشيخ السعدي .

ومن خلال دراسة هذا العقد يستطيع الدارس أن يصل إلى بعض الحقائق عن هذه الفترة التي تعد المصادر عنها من الندرة بمكان .

أما عن الشهود وإمضاءاتهم في هذا العقد فيستفاد من الشيخ أحمد المنجور في الفهرس أن جماعة من العلماء كانت مع السلطان أحمد الوطاسي في هذه الرحلة حدثه بذلك شيخه أبو عبد الله محمد اليسيتني، منهم شيخ الجماعة علي ابن هارون وعبد الواحد الونشريسي، وعبد الوهاب الزقاق، وشيخه اليسيتني نفسه، (2) وبعض هؤلاء من بين الموقعين على العقد، ويصرح الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور أثناء تقديمه لهذه الوثيقة قائلا: «وتأملت أشكال العدول والقضاة فميزت منها شكل الفقيه الشهير علي بن موسى بن علي ابن هارون.» (3) .

ولا يبعد أن تكون بعض الاشكال الاخرى لبعض من ذكر من العلماء الذين كانوا في حاشية الملك .

وبهذه النظرة الموجزة عن شخصية الست الحرة وعن بعض ظروف حكمها بتطوان في القرن العاشر الهجري نكون أسهمنا في ازاحة الستار عن امرأة تعد من ألمع النساء في تاريخنا الوطني بالمغرب الاقصى .

---

1) دوحة الناشر لابن عسكر : 6 ط : حجرية . وعن المناظرة ارجع إلى حديثنا عنها بمجلة دعوة الحق العدد (10 س 17) تحت عنوان : «حول النفي في كلمة الاخلاص» .

2) فهرس احمد المنجور ط : الرباط تحقيق الدكتور محمد حجي .

3) الوثائق الملكية م : 1 : 346 .

قائمة بأهم المراجع

1 ـ أسرة بني راشد الشفشاونية بشمال المغرب ومدلولها التاريخي للاستاذ عبد الرحيم جبور باللغة الاسبانية طبع بتطوان 1953 .

2 ـ تاريخ تطوان للاستاذ داود ا : 117 ط كريماديس بتطوان سنة 1959 .

3 ـ لقط الفرائد لاحمد بن القاضي في أحداث 948 ه .

4 ـ مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي ط حجرية بفاس

5 ـ الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى لاحمد بن خالد الناصري ج 4 : 154 ط دار الكتاب .

6 ـ نهاية الاندلس لعبد الله عنان ص 185 وما بعدها الطبعة الثانية بمصر 1958 .

7 ـ الوثائق الملكية المجلد الاول الوثيقة 115 .

8 ـ عمدة الراوين في أخبار تطاوين للشيخ أحمد الرهوني ج 4 مخطوط غير مرقم، بالخزانة العامة بتطوان .

9 ـ الدوحة لمحمد بن عسكر ط حجرية بفاس في ترجمة الجاسوس المجهول .

10 ـ الست الحرة حاكمة تطوان للاستاذ محمد بن عزوز حكيم عن مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، مطبعة الساحل بالرباط .

www.tetouanhadit.com

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
5	4 من تحت	زوجة	وزوجة
10	3 من تحت	بمعاهدته	بمصاهرته
11	8 من تحت	- 966 هـ	932 - 956 هـ
11	4 من تحت	الشمالي	الشمالي من المغرب
14	7 من فوق	إلى	على
15	5 من فوق	خزرحيه	خزرجية
16	8 من فوق	يحترق	يتحرق
18	9 من فوق	للهاجوس	للجاسوس
19	4 من فوق	فاضحة	فادحة
23	5 من تحت	1) (مكرر)	(1
24	5 من فوق	02	20
24	8 من تحت	1) (مكرر)	(2
24	10 من فوق	(1)	(2)
24	8 من تحت	التنفار	التنافر
25	2 من تحت	زهرة	نزهة
28	5 من فوق	عقد زواج	وثيقة عقد زواج
32	4 من فوق	أكتافه	أكنافه
34	8 من فوق	كنابس	كنابش
36	17 من فوق	نكون قد أسهمنا .	نسهم في إلقا بعض الضوء على تاريخ سيدة .

فهـرس

موضوع	صفحة

مقـدمـة

أميرة الجبل الحرة بنت علي بن راشد 5

نسبها وإسمها 6

مولدها ونشأتها 9

زواجها من القائد المنظري بتطوان 10

زواج السيدة الحرة بأحمد الوطاسي 11

حكم الست الحرة بتطوان 18

قائمة بأهم المراجع 37

جدول الخطأ والصواب 38

www.tetouanhadit.com

ملخص عن حياة الست الحرة
حاكمة تطوان في النصف الاول
من القرن العاشر الهجري

ولدت الست الحرة بشفشاون سنة : 899 هـ - 1493 م ، وهي بنت علي بن راشد من زوجته الاسبانية التي أسلمت وتسمت : (بلالا زهرة) .

اعتنى والدها بتربيتها وتلقت تعليمها على يد بعض كتاب والدها الامير بن راشد ، وعلى يد بعض فقهاء شفشاون . باركها في صغرها أحد الصلحاء وتنبأ لها بأنها سيكون لها شأن كبير ، وتذكر بعض المصادر أن صاحب النبوءة هو الشيخ عبد الله الغزواني (ت : 935 هـ) .

وفى الثامنة عشرة من عمرها تزوجت بقائد تطوان محمد المنظري أبن أخي علي المنظري مجدد مدينة تطوان ، وتوفي عنها زوجها سنة : 924 هـ - 1518 م . وبموته بسط بنو راشد نفوذهم على تطوان

www.tetouanhadit.com

ونواحيها وتولى ذلك الامير أخو الست الحرة، وبما أن أخاها هذا أصبح وزيراً للسلطان أحمد الوطاسي وقائد أركان حربه، أصبحت الحرة تباشر مهام الحكم بتطوان، وأخذ كتاب المذكرات التاريخية من الاسبانيين والبرتغاليين يرددون إسمها في مذكراتهم، وبما أن حرب الجهاد البحري كان على أشده في هذه الفترة التاريخية، وكانت الدولة العثمانية تعمل على ترسيخ وجودها بالشمال الافريقي، وعلى طرد النصارى منه، وظهر على مسرح الاحداث بالجزائر (عروج باشا) وأخوه (خير الدين بارباروس) - صاحب اللحية الحمراء - وعمل هذا على توطيد علاقته بالست الحرة وعلى تنسيق أمر الجهاد البحري معها ضد الاسبان والبرتغال، وبذلك سمحت الحرة (لبربروس) ببناء بعض سفنه على مصب وادي مرتيل، واشتركت معه في الهجوم على السواحل الاسبانية، وحصلت من ذلك على غنائم هامة، تقوى بها نفوذها، وكان هذا مما يسيء إلى العلاقة بين لشبونة وفاس، تلك العلاقة التي كانت تنظمها مجموعة من اتفاقيات الهدنة منذ سنة: (876 هـ - 1471 م). وبالجهاد البحري الذي شاركت فيه الحرة تأزمت المفاوضات بين البرتغاليين والوطاسيين سنة: (1537 و 1538). واستطاعت الحرة أن تشترط لنفسها بواسطة أخيها مولاي إبراهيم شروطاً جعلتها تتمتع بشبه استقلال ذاتي لنحو عشرين سنة.

وفي هذه الاثناء تحالفت مع المنظري الثالث، وزوجته ابنتها الوحيدة، إلى أن تزوجت بالسلطان أحمد الوطاسي سنة: (948 هـ - 1541 م) وهذا مما جعل الاوضاع تتأزم بينها وبين البرتغاليين من

جهة، وبينها وبين أنصار السعديين من جهة ثانية، لان البرتغاليين رأوى في زواجها بالسلطان أحمد الوطاسي تقوية لجانبه، وكذلك الامر بالنسبة للسعديين وأنصارهم، وفي هذه الاثناء تحركت ضدها قوى مختلفة، وحبكت حولها مؤامرة من طرف البرتغاليين، ومن طرف بعض آل المنظري المعادين للوطاسيين، والعاملين على استعادة نفوذهم بتطوان، والذين ظهروا وكأنهم يعملون للسعديين، ونجح محمد بن الحسن المنظري في تأليب القبائل المجاورة لتطوان ضدها بدعوى تصالحها مع حاكم سبتة، وفى هذه الاثناء وهي تعمل للوطاسيين إخلاصاً لزوجها السلطان، كان أخوها محمد أمير شفشاون قد أعلن ولاءه للسعديين حيث سيصبح فيما بعد أحد ركائزهم بالشمال.

فى هذا الجو الذي كان كله ضد الست الحرة هوجمت واضطرت لمغادرت تطوان في أواخر سنة: 949 هـ - 1542 م.

وبذلك أسدل الستار عن الحياة السياسية لهذه السيدة التي تمتعت بشهرة واسعة لاكثر من ربع قرن من الزمان. وحكمت أكثر من ثلاثين سنة.

www.tetouanhadit.com

الست الحرة :

المرأة المغربية التي تحملت مسؤولية الحكم والسياسة بشمال المغرب في فترة من أدق الفترات في تاريخنا الوطني .

« بهذا الكتاب »

تتعرف على حياة هذه السيدة الجليلة التي تمثل نموذجا فريدا من نماذج المرأة المغربية المتبصرة الواعية .

الثمن : 7 دراهم

مطبعة النور - تطوان - الإيداع القانوني رقم : 971 - 1988

www.tetouanhadit.com